التعليل في القرآن الكريم وأثره على العالم والمتعلم

إن البحث في القرآن لا ينتهي ولن ينتهي فهو معين لا ينضب؛ ورغم كثرة الدراسات القرآنية فلا يزال القرآن الكريم يهب الجديد من أسرار عجائبه التي لا تنقضي في دلالة عملية لإعجاز لفظه وعبارته، وفي دراسة جامعية جديدة عن أسلوب التعليل في القرآن، أكدت الباحثة الفلسطينية نجوى نايف عبد النبي شكوكاني أهمية الدرس البلاغي للقرآن وضرورة البحث فيه كونه يخاطب العقل والوجدان معًا، ويبرز ما للقرآن من أسرار تتكشف بالدارسة، وهو ما يجعلنا نقرأ القرآن بطريقة مغايرة تزيدنا يقينًا وتطمئن به قلوبنا جيلاً بعد جيل.

وهدفت الدراسة والتي جاءت تحت عنوان: "التعليل في القرآن الكريم وأثره على العالم والمتعلم" والتي حصلت فيها الباحثة على درجة الدكتوراه من الجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا إلى توضيح المنهج السليم في التعامل مع أسلوب التعليل في القرآن الكريم من خلال إبراز أثره الشامل في العَالِم والمُتعلِّم نتيجةً لتكرار الأخذ به وتطبيقه على مجالي التعلّم والتعليم؛ وذلك من خلال بعض المواضيع والأساليب التي وَرَدَ بها، تلافيًا للاقتصار على الجانب النظري المعهود عند البحث.

وعلى سبيل تحرير الألفاظ بتوضيح معانيها للوصول إلى نتائج دقيقة، عمدت الدراسة إلى بيان المقصود بأسلوب التعليل في القرآن الكريم عند علماء الأصول والنحو والتفسير، مبينة أهمية أسلوب التعليل في القرآن الكريم، والأدوات التي استُخدمت فيه، كما بينت الموضوعات التي استَخدم فيها القرآن الكريم أسلوب التعليل، واستنتاج آثار كل ذلك وفوائده، إضافة لإبراز أثر أسلوب التعليل في القرآن الكريم على العالم والمتعلم، مع بيان مجالات التأثر به فكرًا وسلوكًا.

حقائق وأسرار

إن وراء دراسة التعليل في القرآن بحرًا زاخرًا بالمعاني والدروس التي لا تنضب؛ فمن خلال قراءة كتاب الله U وتدبر آياته، نجد أن هناك منهجًا قد أقام الله تعالى عليه العقائد، والأحكام، والفرائض بالعلل والأسباب، ومنه نكتسب الطريق الصحيح للتعليم، والتفكير، والدراسة للفهم، والبناء، وإعمار الأرض، والنهوض بالعقل والإنسان؛ ليبقى على المستوى الذي ابتغاه له رب العالمين. ولا تزال الدنيا بمغرياتها؛ تلهي وتجذب هذا الإنسان إلى الأرض، والله تعالى يرفع ويرتقي بهذا المخلوق؛ ليكون الأفضل والأكرم في الأرض، بل في الكون، ولن يتحقق هذا التكريم إلا إذا قام الإنسان بوضع عقله في مكانه المناسب، وأعطاه حقه من الفكر، والنشاط، والعمل الدؤوب ليصل إلى مبتغاه الذي أراده الله له، وخلقه من أجله.

ونقدت الدراسة الجنوح المادي الكبير عن التفكير في عصرنا هذا، معللة أن هذه المشكلة نشأت من ضعف التفكير والتعليل والتدبر والتبحُّر حتى إنه الكثيرين أقنع نفسه بطاقات محددة وإمكانات حاسوبيّة، معتبرة أن هذا له سلبياته وآثاره الوخيمة على المستويين الفردي والجماعي للأمة، ونهوضها وتخلفها، من هنا اكتسبت موضوع البحث أهميته خاصة في مواقع التعليم والتعلم، فليس المهم أن أتعلم وأعلم، بل الأهم من ذلك هو ماذا أتعلم وماذا أعلم.

منهج القرآن

وبينت أن التعليم الإسلامي قائم على النظر والملاحظة، ثم الاستنتاج، كما وجهنا الله في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦]؛ ومن ثم فوظيفة العالم والمعلم لا تقف عند نقل التراث الثقافي فقط؛ بل لا بد من اشتمالها على تعديلٍ وتغييرٍ لا يتوقف؛ وذلك بإكساب المتعلم خبراتٍ، وقيمٍ، ومعتقداتٍ، وعاداتٍ، وسلوك الجماعة حيث يعيش، قائمةٍ على التعليل، كما عليه أن يأخذ بعين الاعتبار علم المتعلم، ونضجه العقلي، واستعمال أسلوب المطارحة، والمناظرة، والمحاورة، حيث يهيّء له فرص الجرأة، والثقة بالنفس.

ويبين ذلك ابن خلدون في مقدمته في مواضع كثيرةٍ؛ منها قوله: فيكون الفكر راغبًا في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات، فيرجع إلى من سبقه بعلمٍ، أو زادٍ عليه بمعرفةٍ، أو إدراكٍ، أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه، فيُلقَّن ذلك عنهم، ويحرص على أخذه وعلمه.

تعليل الأخلاق والأحكام الشرعية

وأوضحت الدراسة أنه عند شرح المواضيع التي استخدم فيها القرآن الكريم أسلوب التعليل كالأخلاق والأحكام الشرعية، ظهر أن فوائدها ترجع بالأثر على العالم والمتعلم، مما تجعله يقبل على هذا الأسلوب دراسةً وفهمًا وتطبيقًا؛ طاعةً لله تعالى، واقتداءً برسوله محمد ﷺ الذي استخدمه خلال تعليم وتربية الصحابة؛ فلو شرح المعلم مثلًا خلقًا إسلاميًا كالصدق، فإن كان مخلصًا بعمله لله تعالى، متمسكًا بكتابه، وبسنة نبيه ﷺ، متأثرًا بمناهج القرآن الكريم التعليمية، وأساليبه البيانية؛ فإنه سيناقش طلابه ويسألهم عن الأسباب والعلل؛ ليتوصل بعدها المتعلم إلى النتائج بسهولةٍ ويقتنع بها.

مثلًا سيسأل ابتداءً عن أسباب صلاح المجتمعات، وأسباب فسادها، وبعد معرفة الأخلاق الحسنة التي يتخلق أهلها بها، سيَسأل عن خلق الصدق وفوائده، وأسباب دعوة الإسلام له أي كأسلوب القرآن الكريم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وهكذا يتدرج المعلم، ويفتح باب النقاش أيضًا للطالب حتى يسأل عن الأسباب والمسببات والعلل. وبذا يتأثر المتعلم بأسلوب معلمه التعليلي، فيرسخ العلم عنده ويفهمه من جهة، ومن جهةٍ أخرى فإنه مع تكرار استخدام المعلم لهذا الأسلوب؛ فإنه سيتدرب على مهارات التعليل وإقامة الحجة على صحة الرأي ووجهة النظر فسيصبح ذلك منهجًا وسلوكًا للمتعلم؛ فتنمو قدرته على التفكير العلمي الإبداعي.

وانتهت الدراسة إلى جملة من النتائج، أهمها تعدد المعاني اللغوية والتعريفات الاصطلاحية للفظ "تعليل"، إلا أنها تمحورت حول فكرة المعاودة من حالٍ إلى حالٍ مع الانشغال بذلك الموضوع، حتى يصل إلى نتيجةٍ وسببٍ أو أثر، أيضًا أن معاني أسلوب التعليل اللغوية والاصطلاحية لها علاقةٌ كبيرةٌ مع أهداف هذه الدراسة فهو الطريقة الفنية الخاصة التي تُسلك لبيان العِلّة أو السبب لأمر ما ولتحقيق غاية ما؛ والفائدة المؤدَّاة من خلاله تتعدى الفوائد المجتباة من خلال التراكيب اللغوية، كالبلاغة وبالبيان، والبديع وغيرها، وهذا يفتح مجالًا رحبًا للاستدلال على آثارٍ فكريَّةٍ وسلوكيَّةٍ على العالم والمتعلم في بناء حياتهما.